قصة:

أنتَ الأب وأنتَ العم

بقلم: أ. أحمد عباس

بكَيْتُ على زيْـدٍ ولم أَدْرِ ما فَعَلْ
أَحَيٌّ يُرَجَّى أم أتى دونَـه الأَجَلْ
تذكِّرُنيه الشمسُ عند طلوعـها
وتُعْرِضُ ذكراهُ إذا قـاربَ الطَّفَلْ

خرج زيد بن حارثة مع أمّه سُعدى لزيارة أهل لهم في اليمن، فما أن حلا ضيوفًا حتّى أغارت عليهم خيل نهبت الأموال وساقت الإبل وسبت الذراري، وكان صاحبنا زيد من ضمن الأسرى وكان عمره حينئذ ثمان سنين.

عُرض زيد للبيع في سوق عكاظ، فاشتراه سيد من سادات مكة وثري من أثريائها حكيم بن حزام بن خويلد بأربعمائة درهم، واشترى معه غلمان آخرين، فلمّا رجع إلى مكة جاءت عمته خديجة بنت خويلد زائرة مسلمة عليه بسلامة الوصول فأراد أن يتحفها بهدية فعرض عليها ما اشتراه من الغلمان لتختار من تشاء، فتفرست في وجوهم فاختارت زيدًا لأنّها توسمت في وجهه النجابة والنباهة والذكاء. فلمّا أكرمها الله بالزواج من محمّد (ص) لم تجد هدية تقدمها إليه أغلى وأنفس من زيد فأهدته إليه.

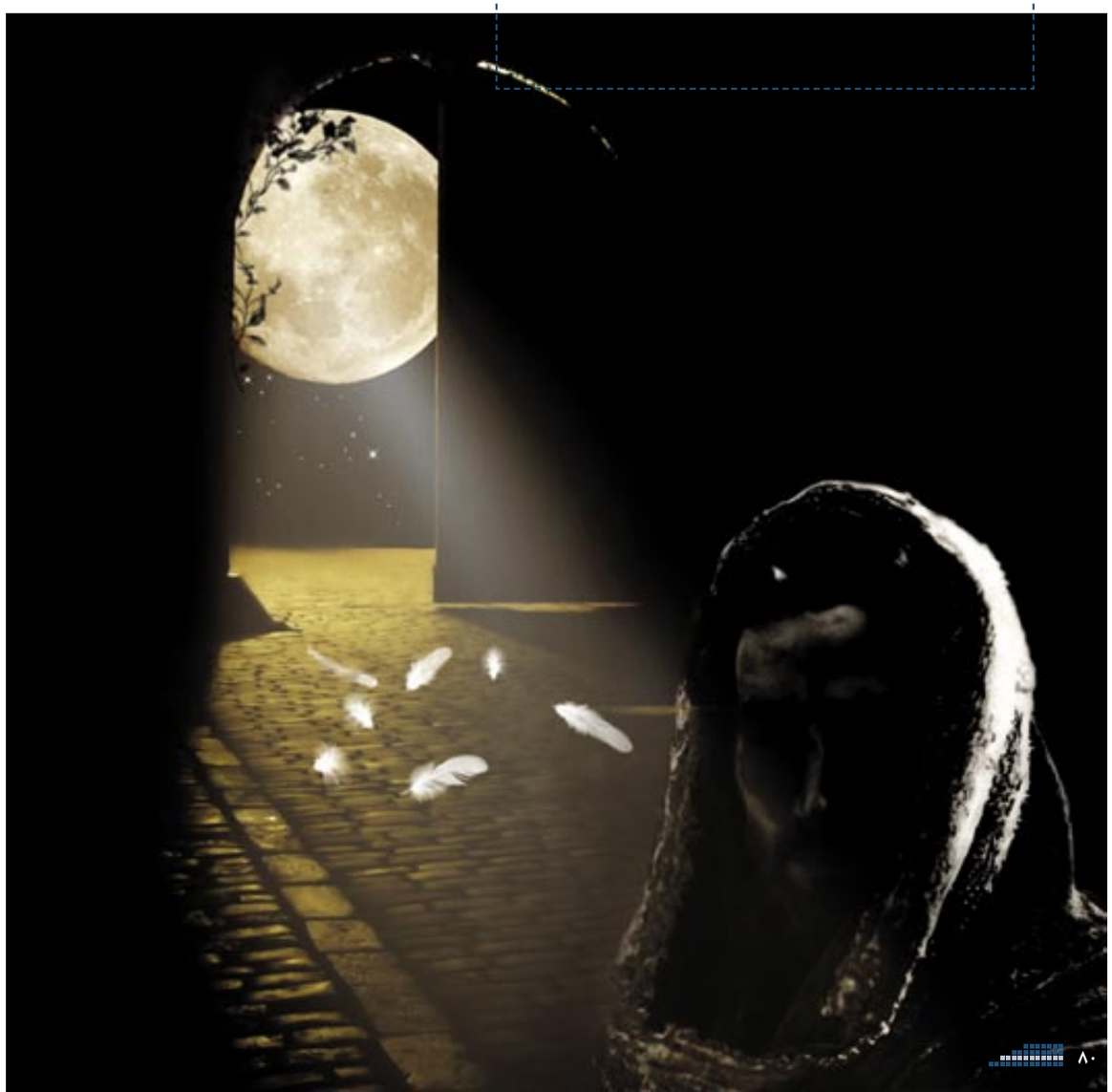

كان أهل زيد في غمّ وهمّ وحزن، يتلقطون الأخبار ويسألون القوافل الراجعة ويطلبون من القوافل المسافرة أن تتقصىّ ، وكان أبوه يناجيه صباح مساء يردّد:

بكَيْتُ على زيْدٍ ولم أَدْرِ ما فَعَلْ
أَحَيٌّ يُرَجَّى أم أتى دونَه الأَجَلْ
تذكِّرُنيه الشمسُ عند طلوعـها
وتُعْرِضُ ذكراهُ إذا قـاربَ الطَّفَلْ

هذا فعْلُ المعاملة الحسنة في القلوب، فبدل أن يعيش حرًّا مع أبويه آثر زيدٌ أن يظلّ خادمًا عند محمّد (ص) لأنّ محمّدا (ص) -وقبل نبوّته- كان لخادمه ولِمَن ولي أمرَه ولكلّ لصيقٍ به الأبُ الرحيم والعمُّ الشفيقُ والمُحبُّ الحريصُ والخليلُ المُواسي.

وشاء الله أن يلتقي نفر من قوم زيد بزيد وجهًا لوجه في مكة في موسم الحج فعرفهم وعرفوه، وكلمهم وكلموه، فطاروا بالخبر المفرح إلى أبويه، وقالوا إنّ ابنكم زيداً عند سيّد من سادات مكّة يدعى محمّد بن عبد الله.

ظنّ الأهل أنّ هذا السيد كسائر السادات لن يردَّ زيدًا إلّا بما نفس وغلا ، فاستدان أبوه وأهله من النّاس مالاً كثيرًا بأمل أن يفدوه، ثمّ توجّه الأب وأخوه كعب إلى مكة، فلمّا بلغاها قصدا محمّد بن عبد الله (ص) فدخلا عليه وقالا: يا بن عبد المطلب، أنتم جيران الله، تفكّون العاني، وتطعمون الجائع، وتغيثون الملهوف، وقد جئناك في ابننا الذي عندك وحملنا إليك من المال ما يفي به، فامنُن علينا وفاده لنا بما تشاء.

فقال محمّد: ومن ابنكما الذي تعنيان؟

قالا: غلامك زيد بن حارثة.

فقال: وهل لكما فيما هو خير من الفداء؟

فقالا: وما هو؟

فقال: أدعوه لكم فخيرّوه بيني وبينكم فإن اختاركم فهو لكم بغير مال، وإن اختارني فما أنا والله بالذي يرغب عمّن يختاره.

فقالا: لقد أنصفتَ وبالغت في الإنصاف.

فدعا محمدٌ زيدًا وقال: مَن هذان؟

قال زيد: هذا أبي حارثة بن شرحبيل، وهذا عمّي كعب.

فقال محمد: قد خيّرتك؛ إن شئت مضيتَ معهما، وإن شئت أقمتَ معي.

فقال زيد بلا تردّد: بل أقيم معك، ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، أنت الأب وأنت العم...

فقال أبوه: ويحك يا زيد، أتختار العبودية على أبيك وأمّك؟

فقال زيد: إنّي رأيت من هذا الرجل شيئاً وما أنا بالذي أفارقه أبدًا.

فلما رأى محمّد (ص) من زيد ما رأى، أخذ بيده وأخرجه إلى البيت الحرام ووقف عند الحِجْر وقال: يا معشر قريش اشهدوا أنّ هذا ابني يرثني وأرثه، فطابت نفس أبيه وعمّه وخلّفاه عند محمّد (ص) وعادا إلى قومهما مطمئنَّيْ النفس مرتاحَيْ البال. ومنذ ذلك اليوم أصبح يدعى زيد بن محمد.

ولمّا بُعث محمّد (ص) بالرسالة كان زيد من أوائل من دخل في الإسلام، ولمّا قصد رسول الله (ص) الطائف بعد وفاة أبي طالب كان زيد ظلّه الذي لا يفارقه، وظلّ يدعى زيد بن محمّد حتى نزل قوله تعالى: (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ) فعادَ يُدعى زيد بن حارثة.

هذا فعْلُ المعاملة الحسنة في القلوب، فبدل أن يعيش حرًّا مع أبويه آثر زيدٌ أن يظلّ خادمًا عند محمّد (ص) لأنّ محمّدا (ص) -وقبل نبوّته- كان لخادمه ولِمَن ولي أمرَه ولكلّ لصيق به الأبَ الرحيم والعمَّ الشفيقَ والمُحبَّ الحريص والخليلَ المُواسي، ثمّ أخذتْ زيداً تلك المعاملةُ الحسنة لتُدرجه من أسبق المصدّقين بمحمّد (ص) الدّاخلين في دينه، فهل نتّخذ رسولنا الكريم أسوةً حسنة في علاقاتنا مع الآخر ممّن حولنا؟ لا سيّما من هم دوننا من خدم وأُجراء وأبناء وتلاميذ ومرؤوسين، لنكسب قلوبهم، ونكون نعم الآباء والمعلّمين والرُّعاة لمن تولياه.